مجلة الدراسات السودانية

المجلد السابع والعشرون، أكتوبر 2021م

مجلة علميّة محكّمة يصدرها معهد الدراسات الإفريقية والآسيوية، جامعة الخرطوم

Journal of Sudanese Studies

Volume 27, October 2021

A Scientific Refereed Journal Issued by the Institute of African and Asian Studies - University of Khartoum

مجلة الدراسات السودانية
Journal of Sudanese Studies

ردمد: ISSN: 1022 - 3525

مجلة علميّة محكّمة

يصدرها معهد الدراسات الإفريقية والآسيوية

جامعة الخرطوم

المجلد السابع والعشرون

أكتوبر 2021م

مجلة الدراسات السودانية

ISSN:	1022-3525
Title:	مجلة الدراسات السودانية
Imprint:	الخرطوم: معهد الدراسات الإفريقية والآسيوية – جامعة الخرطوم، 2010
Frequency:	Annual
Type of Publication:	Periodical - دورية
Language:	Arabic and English

هيئة التحرير

رئيس التحرير: بروفيسور/ الأمين أبومنقة محمد

سكرتيرة التحرير: دكتورة/ منى محمود أبوبكر

أعضاء هيئة التحرير:

بروفيسور/ يوسف فضل حسن

بروفيسور/ أحمد عبدالرحيم نصر

بروفيسور/ منزول عبدالله منزول عسل

بروفيسور/ يحيى فضل طاهر

بروفيسور/ سامية محمد علي البدوي

بروفيسور/ الصادق يحيى عبدالله

دكتورة/ محاسن عبدالقادر حاج الصافي

إدارة التحرير:

ضبط اللغة: الدكتور/ عباس الحاج الأمين

التصميم: المهندس/ خالد عبد الله محمد

سكرتيرة المجلة السيدة/ نهلة محمد عثمان

:

قواعد وشروط النشر

مجلة الدراسات السودانية مجلة علمية محكّمة تصدر عن معهد الدراسات الإفريقية والآسيوية، جامعة الخرطوم، وتقبل البحوث في كل مجالات العلوم الإنسانية ذات الصلة المباشرة بالسودان، إضافة إلى عرض الكتب المتعلقة بالسودان.

يرجى من مقدمي البحوث لهذه المجلة مراعاة الآتي:

1- ألا يكون البحث المقدم للمجلة قد نشر أو قدم للنشر في مكان آخر.

2- تسلم نسخة ورقية مطبوعة على الحاسوب مع نبذة عن الكاتب، ونسخة في قرص مضغوط (CD) لرئيس أو سكرتير التحرير، أو ترسل عبر البريد الالكتروني على العنوانين التاليين: abumanga1951@gmail.com, ssbulletin@uofk.edu

3- أن تكون صفحات البحث باللغة العربية بين خمس عشرة وثلاثين صفحة (بنط 16 Simplified Arabic مسافة واحدة بين السطور single spacing)، أو لا يتجاوز الـ 8000 كلمة. وأن تكون صفحات البحث باللغة الإنجليزية بين خمس عشرة وخمس وعشرين صفحة (بنط 14 Times New Roman مسافة واحدة بين السطور single spacing)، أو لا يتجاوز الـ 9000 كلمة. وأن يرفق مع البحث مستخلص باللغة العربية وآخر الإنجليزية في حدود 150 كلمة لكل مستخلص.

4- أن يوثق البحث المكتوب باللغة الإنجليزية داخل النص وفقاً للنظام السائد في الدوريات العالمية التي تصدر باللغات الأجنبية، فيكتب بين قوسين/هلالين: الاسم الأخير للمؤلف (أي اسم العائلة)، وتاريخ المرجع، ورقم الصفحة (عند الضرورة)، كما في النموذج التالي: (Hugo 2021:89)، وتثبت المراجع والمصادر بكامل معلوماتها في نهاية البحث بالكيفية التي وضحناها والنماذج التي نوردها أدناه بالنسبة للبحوث المكتوبة باللغة العربية.

5- أن يوثق البحث المكتوب باللغة العربية عن طريق الهوامش (وليس داخل النص)، وتكتب الهوامش في نهاية البحث، ثم ترتب المصادر والمراجع التي اعتمدها الباحث ألفبائياً في نهاية البحث، مع اتباع أحد المناهج الحديثة في ذلك، وفقاً للنماذج التالية:

كتاب:

عون الشريف قاسم (1989): الإسلام والعربية في السودان، دار الجيل، بيروت، ص...

Greenberg, J. (1966): *Languages of Africa*. The Hague: Mouton, p.…

مقال في دورية

عشاري أحمد محمود (1988): "أزمة اللسانيات في العالم العربي"، المجلة العربية للدراسات اللغوية، العدد الأول، ص3.

Hurreiz, S.H. (1978): "Arabic as a national and international language: Current problems and future needs", *West African Journal of Modern Languages* III, p.13.

مقال أو فصل في كتاب

Qasim, Awn Sh. (1975): "Sudanese Colloquial Arabic in social and historical perspective", in *Directions in Sudanese Linguistics and Folklore*, ed. by S.H. Hurreiz & H. Bell. Khartoum: Institute of African and Asian Studies, University of Khartoum.

الأمين أبومنقة محمد (1992): "العلاقات السودانية النيجيرية في إطار المهدية"، علاقات السودان الخارجية، تحرير حامد عثمان ومدني محمد أحمد، الخرطوم، دار جامعة الخرطوم للنشر، ص7.

6- تعبّر البحوث المنشورة في المجلة عن آراء كاتبيها.

7- لهيئة التحرير الحق في إدخال التحرير والتعديل اللازمين على البحوث.

المشاركون في هذا العدد

القسم العربي

بروفيسور بابكر علي ديومة، قسم اللغة الفرنسية (زميل)، جامعة الخرطوم.

دكتور المكاشفي إبراهيم عبدالله، أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية، كلية التربية، جامعة الخرطوم.

دكتور محمد البدري سليمان، أستاذ مساعد، قسم الآثار، كلية الآداب، جامعة الخرطوم.

دكتور خالد محمد فرح، سفير بوزارة الخارجية السودانية.

دكتور الأصم بشير التوم بشير، أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية، كلية التربية، جامعة الخرطوم.

دكتورة سمية محمد الزين أحمد بدوي، أستاذ مشارك، مدرسة العلوم الإدارية، جامعة الأحفاد للبنات (السودان).

دكتور الصادق محمد سليمان، الأمين العام السابق لمجلس تطوير وترقية اللغات القومية، الخرطوم.

القسم الإنجليزي

Prof. Abdel Ghaffar M. Ahmed, Anthropology Department, Faculty of Economic and Social Studies, University of Khartoum.

بسم الله الرحمن الرحيم

افتتاحية

أعزائي القراء

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته. يسرنا أن نقدم لكم المجلد السابع والعشرين من مجلة الدراسات السودانية، ونحمد الله أن أعاننا على إعداده رغم ظروف عدم الاستقرار التي تشهدها الجامعة منذ عدة أشهر. وقد يلاحظ القارئ ظهور هذا المجلد بعد زمن وجيز من صدور المجلد السادس والعشرين؛ وهذا نتيجة لسعينا في تقليل الفجوة الزمنية في تواريخ صدور المجلدات الأخيرة من المجلة، الناتجة عن توقف إعدادها لقرابة العامين (2018-2020)، حيث شهدت البلاد في تلك الفترة الأحداث السياسية المصاحبة لثورة ديسمبر (2019)، وتلى ذلك مباشرة انتشار جائحة كورونا (COVID19).

بما أن المجلة أصبحت تصدر باللغتين العربية والإنجليزية، فقد تقرر، بموافقة كل أعضاء هيئة التحرير، إجراء تعديل طفيف في اسمها باللغة الإنجليزية، وذلك باستبدال كلمة Bulletin بكلمة Journal ليقرأ: **Journal of Sudanese Studies** ويختصر في: **JSS**.

نرجو أن نذكِّر – كما نفعل كل مرة – أن النشر في هذه المجلة لا يقتصر على العلوم الإنسانية وحدها، بل يشمل جميع العلوم، طالما أن موضوع المقال أو البحث ذو صلة مباشرة بالسودان. ونشير إلى أن المجلة تنشر المقالات والبحوث باللغتين العربية والإنجليزية.

نرجو في هذه السانحة أن نشكر الباحثين المشاركين في هذا المجلد على التزامهم بشروط وموجِّهات النشر في هذه المجلة، وكذا صبرهم على إصرارنا عليهم لإكمال المعلومات وإجراء التصويبات المطلوبة منهم، روماً للتجويد. ونشكر كذلك الزملاء محكِّمي المقالات والبحوث على إخلاصهم في مهمتهم وإنجازها بالمهنية المرتجاة، مما يعيننا على المحافظة على المستوى المعهود للمجلة.

والحمد لله أولاً وآخراً.

رئيس هيئة التحرير

محتويات العدد

القسم العربي:

مقالات:

1- ملامح الرواية السودانية: الماضي والحاضر وآفاق المستقبل، بابكر علي ديومة 1

2- الصورةُ التشبيهيَّة في رواية "عُرْسِ الزَّين"، المكاشفي إبراهيم عبد الله 29

3- الحواضر الإقليمية في العصر المروي – كِدُرْمَة بإقليم الشلال الثالث نموذجاً، محمد البدري سليمان 47

4- من شواهد الصلات التاريخية المبكرة لدارفور بالعروبة والإسلام: مقاربة أولية للتحقُّق من صحة وأصالة وثيقة دارفورية من القرن السادس عشر، خالد محمد فرح 81

5- من قضايا الشِّعر الشعبي في السودان: مفهومه، وموسيقاه، وموضوعاته، الأصم بشيرالتوم 99

بحوث:

6- المسئولية المجتمعية للمؤسسات في السودان بين النظرية والتطبيق، سمية محمد الزين أحمد بدوي 121

عرض كتب:

7- عرض كتاب: لغات السودان – مقدمة تعريفية ، تأليف: الأمين أبومنقة محمد وكمال محمد جاه الله،
عرض الصادق محمد سليمان 177

القسم الإنجليزي:

مقالات:

8- Pastoral Development Paradigms – The Case of Sudan
Abdel Ghaffar M. Ahmed 185

:

ملامح الرواية السودانية: الماضي والحاضر وآفاق المستقبل

بابكر علي ديومة

مستخلص: دار – وما يزال – لغط كثير حول نشأة وتطور الرواية السودانية والمواضيع التي تلقى منها الاهتمام: أهي أدبية بحتة، أم تختلط بها هموم الروائي، وبالتالي قضايا الواقع الذي يُعايش؟ وهل يمكن للمرء التطرق للرواية كبوتقة واحدة يندرج في إطارها إبداع كافة المبدعين، أم أن هناك تباينات بين إبداع المرأة والرجل، وإبداع المقيم بأرض الوطن والمهاجر المغترب؟ ثم ما هي مآلاتها في ظل الواقع الجديد الذي تعيشه البلاد، خاصة وفي ظل الانفجار غير المسبوق في مضمار التقدم التقني والتطور الحثيث في وسائل التواصل الاجتماعي بصفة عامة؟ تلك تساؤلات يسعى هذا البحث لمقاربتها وتسليط بعض الضوء عليها.

Abstract: A lot of discussion has been, and is still being raised about the origin and the development of the Sudanese novel and its features and favourite subjects: is it a pure literary work, or is it affected by the concerns of the writer and the problems of the society? On the other hand, is the creative works of men resemble that of women? Does the novel of the emigrants and expatriates have the same features of that written inside the country? What are the perspectives of the Sudanese novel in the actual circumstances of the country and the development of the mass-media? These are the questions which the present article attempts to answer.

كلمات مفتاحية: الاجتماعي ـ الرواية النسوية – المهجر ـ إشكالية النشر ـ غياب النقد.

مقدمة

صعوبتان تواجهان الباحث في تتبع مسيرة الرواية السودانية. تكمن أولاهما في التساؤل: عن أية رواية نتحدث؟ هل نتحدث عن تلك التي كان كتَّابها من المحظوظين فوجدت طريقها لرفوف المكتبات، أم تلك التي ظلت مشاريعَ مستقبلية في أذهان البعض، أو أعمالاً كُتبت بالفعل وظلت حبيسة الأدراج لعدم استطاعة كتَّابها تحمُّل أعباء النشر؟ ثم مَن يدعي أن ما نُشر من أعمال روائية بمقدوره إعطاء صورة متكاملة لمُجمل ما كُتب في هذا السياق؟ ولما يدور بخلد كافة المبدعين ويُعبِّر بصدق عن المآلات التي يصبو إليها فن الرواية؟

وتتلخص الصعوبة الثانية في افتقار المكتبة السودانية للمراجع التي تُعنى بتاريخ وتطور الرواية السودانية، الأمر الذي يضطر الباحث لاستقاء مادته من مقالات متناثرة في المواقع الإلكترونية، أو من محاضِر الندوات ذات الصلة. بيد أنه ينبغي الإشارة بدءاً إلى أن ما يرد في هذا البحث لا يُمثل رؤية قاطعة، أو الكلمة الفصل في موضوع شائك كهذا؛ إنما يهدف للمساهمة في مسار يحتمل رؤى أخرى لربما كانت مُخالفة لما سيرد. آراء تعمل على اكتمال الصورة وإلقاء المزيد من الضوء على ما سنسطره. سنتابع أولاً مسيرة العمل الروائي عبر الحقب المتعاقبة من التاريخ المُعاصر، والدوافع والأسباب التي أدت لازدهاره تارة، وضموره تارة أخرى. سنقف كذلك عند السمات الغالبة على إبداع فئات بعينها، كالرواية النسوية وأعمال شريحة المُغتربين والمُهاجرين. سنتطرق أخيراً للعقبات التي تواجه الروائي في يومنا هذا من حيث قضايا النشر والتوزيع وغياب الناقد المؤهل، قبل أن نختتم البحث بالتنبؤ، وفقاً للمعطيات الماثلة، لما قد يكون عليه مستقبل الرواية عموماً، والسودانية على وجه الخصوص.

واقعية الرواية السودانية

تتمثل واقعية الأدب عموماً، ومنه الرواية، في نقله لمجريات الحياة الاجتماعية اليومية. فالرواية والراوي والمجتمع يمثلون في واقع الأمر سلسلة واحدة مترابطة، إذ ليس ثمة أدب دون فعل اجتماعي، كما أنه ليس من مجتمع دون أدب. يقول جورج لوكاش (Lukasc) في هذا الصدد واصفاً الواقعية على أنها «إلهام يوظّفه الفن في تجربته في العالم، تتحول فيه من تجربة ذاتية في حد ذاتها إلى تجربة جماعية، وبالتالي يعي الفن تطور البشرية».[1]

(1) نقلاً من مقال للفيلسوف المجري جورج لوكاش، "سوسيولوجيا الأدب"، صحيفة الاتحاد، alittihad.ae، تاريخ النشر 2016/11/23، تاريخ الاطلاع 2016/11/30.

دور الكاتب في ثنايا روايته

لئن كان البعض يحصر دور الروائي في نقل ما يجري في الواقع بقالب إبداعي، ويأخذ عليه تدخله، أو بسط رؤاه الذاتية بصورة أو بأخرى، فإن مثل هذا القول لا يثبت عند البحث والتمحيص. ذلك أن القضايا التي قد تشغل بال المجتمع، أيَّ مجتمع، كثيرة لا يحصيها العد، ما يضطر من يتناولها لانتقاء تلك التي يراها مُلحَّة، أو التي تجد هوى في نفسه. فاختيار الموضوعات الاجتماعية التي تُمثل مادة العمل الروائي، كما اختيار الشخوص الروائيين الذين يتصارعون في ثناياه؛ إنما تتم بإرادة الكاتب الذي يُحدِّد الواقع المعيَّن الذي يود إلقاء الضوء عليه من جملة عُدة جوانب، إيجابية كانت أم سالبة، تدور في المجموعة التي يُعايشها. ثم أنه، أي الروائي، هو من يوظِّف الشخوص المناسبين لتجسيد المواقف، ولبلوغ النهايات التي ينشدها. بيد أن بعض أولئك الشخوص قد يتمرد على الدور الذي أنيط به ورُسِم له مُسبقاً، ويأخذ أداؤه منحى يختلف عما كان يدور بخلد الكاتب نفسه. هنا يكمن الإبداع في معتقدنا، بمعنى أن الإبداع لا يتحقَّق بتسطير ما تخيَّله الروائي وأعدَّ له سلفاً؛ وإنما بورود ما لم يكن يخطر بباله، بما يفرض نفسه عنوة على اليراع ودون وعي من الكاتب في كثير من الأحايين إبان مخاض الكتابة. كان ذلك شأن الرواية السودانية عموماً، يتمازج فيها الأدبي مع الاجتماعي، وتتداخل فيها أشواق الروائي مع هموم المجتمع.

الكاتب والالتزام

أثارت مسألة الالتزام في الآداب والفنون، وبخاصة في مضمار الرواية، أثارت – وما تزال – الكثير من الجدل في أوساط النقاد والمهتمين بقضايا الفكر. فالالتزام يعني ببساطة الإخلاص والتقيُّد المُطلق بقضية ما، أو بفكرة سياسية أو فلسفية بعينها يُكرِّس الكاتب مُجمل أعماله لتزيينها، والذود عن أهدافها،

وتبخيس رؤى معارضيها، حتى وإن ثبت بالدليل القاطع فشل ما نذر نفسه للدفاع عنه، وإن كانت مضامين فكرته تُخالف المنطق، وتتعارض مع الواقع المُعاش. فالكاتب المُلتزم هو من يتغاضى عن مسالب ما اقتنع به من فكر، لا يسطر سوى محاسنه، مُتغاضياً عن المساويء والهنَّات. قد يكون الالتزام الأدبي محموداً، بل مُحبذاً ومطلوباً، إن كان هدفه إنسانياً يسعى لترقية الحياة، وإسعاد بني البشر. مثال ذلك ما تقوم به وتستميت في أدائه بعض المنظمات التي تُعنى بحقوق الإنسان، أو حتى تلك المهتمة بالحفاظ على الحيوانات المُهدَّدة بالانقراض، وبسلامة البيئة خِدمة للحياة على وجه البسيطة. أما إن كُرِّس الالتزام لتخريب الحياة، كالدعوة لاضطهاد البشر وتصنيفهم وِفقاً لأعراقهم وسحناتهم وهوياتهم ومعتقداتهم وآرائهم ورؤاهم السياسية والفلسفية، فلابد أن يقود ذلك لتخريب الحياة وإثارة الإحن والمرارات. ولنا في مثل تلك الدعوات الخرقاء التي سبقت الحربين الكونيتين الدليل الناصِع على ذلك. كما أن الالتزام يحدُّ من خيال الروائي، بمعنى أنه يحصره في رؤية منطق الصديق، ويحرمه من التأمل في الرأي الآخر. جرب الكثير من الأدباء والمُفكرين منهج الالتزام، ثم ما لبثوا أن نبذوه حين تبيَّن لهم أنه يحدُّ من قدراتهم الإبداعية، ويُقلِّل من مصداقيتهم أمام جمهرة القراء. وإذا ما تمعنا في مسألة الالتزام بغير الشأن العام في جل العمل الروائي السوداني لوجدناها هامشية غير ذات بال. نستثني من ذلك الإبداع الأدبي النسائي.

إن الرواية، أية رواية، لهي وليدة زمانها، ومقياس يعتمد صدقه من زيفه على تجرد الكاتب ونظرته الموضوعية لما يحيط به من أحداث، وما يدور حوله من مجريات في الحياة الاجتماعية. ولئن كان أقصر تعريف للسياسة أنها تصريف شئون الناس داخلياً، ورعاية ما يصب في مصلحة تلك الشئون خارجياً، فإن تلك

الشئون والمصالح لهي المادة الرئيسة التي تزوِّد العمل الأدبي، بكافة ضروبه، بالعناصر التي تُغذيه. ولعل ذلك ما يشير إليه عبد الرحيم العطري بالقول:

> فالأدب لا يمكن أن ينفصل عن سياقه المجتمعي، فكل نص أدبي ليس سوى تجربة اجتماعية. فالأديب المنتج للعمل الأدبي، هو في البدء والختام فاعل اجتماعي قادم من مجتمع معيَّن. والمتلقي المفترض لهذا المنتوج الأدبي/الاجتماعي هو فاعل اجتماعي آخر.[2]

فذلكة تاريخية عن نشأة الرواية السودانية

درج بعض ممن يؤرِخ للرواية السودانية على تحديد أزمنة بعينها، وأعمال بذاتها يرون فيها بداية الإبداع الروائي بالسودان. بل ذهب البعض لتحديد تاريخ لنشأة الرواية في السودان حسب ما ذهب إليه أحد المشاركين في ندوة "الرواية الجديدة في السودان" بقوله: "منذ ظهور الرواية في السودان عام 1948م كانت مُعبِّرة عن وجود اجتماعي وراصد للحراك الاجتماعي والثقافي".[3]

لا نتفق من جانبنا مع مثل هذا الطرح لسبب جد بسيط، وهو أنهم يتجاهلون حقيقة أن هناك الكثير من الأعمال التي لم تجد طريقها للنشر، فظلت حبيسة أدراج كتَّابها. فلئن كان كتاب تراثي فريد كطبقات ود ضيف الله الذي يؤرخ لسلطنة الفونج في القرن التاسع عشر الميلادي، ويصف بدايات دخول الإسلام في السودان، ونشوء الطرق الصوفية، ويحكي عن كرامات الأولياء، ويصف

(2) عبد الرحيم العطري: "الفلسفة، علم النفس، علم الاجتماع، مقدمة في سوسيولوجيا الأدب"، الحوار المتمدن، https://mahewar.og، تاريخ الاطلاع 2016/10/29.

(3) منتدى السرد والنقد، "الرواية الجديدة في السودان (2.2)"، الحوار المتمدن، صحيفة الصحافة، تاريخ النشر 2010/8/17، تاريخ الاطلاع 2010/8/17.

الحياة الاجتماعية حينذاك، لم يُعثر على طبعته الخطية الأصلية بعد، كما لم تر طبعته الأولى النور إلا في وقت قريب، فذلك يدل دلالة واضحة على أن الكثير من الثروات الثقافية لا تزال مطمورة، ولا يعلم عنها أحد شيئاً. وما ينطبق على طبقات ود ضيف الله، وهو عمل تُراثي قديم، ينطبق على الكثير من الأعمال الروائية لكثير من المُحدثين. إذ حُظينا بالاطلاع على ديباجات لأعمال روائية رائعة كان كتَّابها يأملون في نشرها، وكان من المأمول إطلاع القراء عليها، بيد أننا لم نر أحدها على رفوف المكتبات لعوامل سنتطرق إليها لاحِقاً.

بدايات الرواية السودانية (حِقبة ما قبل الاستقلال)

كان للشِعر دوماً قصب السبق على الرواية. حدث ذلك في الغرب حيث عُرِفت الملحمة والشعر قبل وقت طويل من ظهور أول رواية في نهاية القرن الثامن عشر. ففي فرنسا على سبيل المثال ذاعت أشعار راسين (Racine) وموليير (Molière) منذ أواسط القرن السابع عشر، بينما لم تبرز أول رواية إلى حيز الوجود، ألا وهي أميرة كليف (La Princesse de Clèves)، إلا في أواخر القرن ذاته. وما ينطبق على الرواية الفرنسية، ينطبق كذلك على الرواية السودانية، إذ كان الشعر – وما يزال – غالباً. يرجع ذلك في مُعتقدنا إلى خِفة وزن الشعر على الأذن، وسرعة المُستمع في تلقِّيه وتشفير معانيه. أضف إلى ذلك أن الموسيقى المُصاحِبة له في الشعر الغنائي تصرف المستمع عن التمعُّن والغوص في معانيه، في حين تستلزم قراءة الرواية التركيز والجُهد في متابعة حبكتها.

دخل فن الرواية في السودان في مطلع القرن التاسع عشر عن طريق الانفتاح على مصر، سواءً من حيث التواصل الاجتماعي أو بفعل احتلال مصر للسودان إبان حِقبة الحُكم الثنائي. كما كان للأساتذة المصريين الذين عملوا في كلية

غردون التذكارية، قبل أن تُصبِح جامعة الخرطوم الحالية، كان لهم دور كبير في التعريف بفن الرواية. وتجدر الإشارة هنا إلى أن فنوناً كالرواية والمسرح والملحمة دخلت إلى مصر ذاتها جد متأخرة، أي عقب البعوث العلمية التي دفع بها محمد علي باشا للغرب في أواسط القرن التاسع عشر للميلاد.

كثيراً ما يتردد اسم الأديبة ست الدار محمد عبد الله، والتي كتبت في منتصف القرن المنصرم، كثيراً ما يتردد اسمها باعتبارها رائدة للرواية، ليس في السودان فحسب، وإنما في كافة أرجاء البلاد العربية. كتبت ست الدار أشهر أعمالها "الفراغ العريض" في خمسينات القرن المنصرم، وهو عمل لم تتم طباعته إلا في السبعينات من ذات القرن، أي عقب وفاة كاتبته. والكتاب عبارة عن تبيان للحالة المُزرية للمرأة السودانية، وبخاصة المرأة الريفية، إبان الحِقبة الاستعمارية. صورت المؤلِّفة سلطان الرجل وتحيُّز قوانين المجتمع للذكر، وهضمها لحقوق الأنثى التي لا تجد سوى الكبت والهوان وضِياع أبسط الحقوق. ومن أعمالها كذلك "حكيم القرية"، و"متى تعودين"، و"المجنونة". وحتى لو سلَّمنا جدلاً بأن كتابات ست الدار كان لها قصب السبق في مضمار كتابة الرواية، فإنه من الثابت تاريخياً أن رواية "تاجوج" لمحمد عثمان هاشم كانت قد سبقت كتابات ست الدار، إذ رأت النور في العام 1948 للميلاد، أي قبل رواية ست الدار بعدة سنوات. ومهما يكن من أمر، فإن أعمال ست الدار، كما هو الحال بالنسبة لأعمال الكاتِب والناقد معاوية محمد نور (1909– 1941) في ثلاثينات القرن الماضي، تندرج فيما يُمكِن تسميته بـ"حقبة التحرر الوطني". الفرق بين المُبدِعَين أن ست الدار بتصديها للشأن النسوي استمدت مادتها الروائية من مجتمعها الريفي وهي مقيمة بالسودان، متفاعلة مع قضاياه، في حين كتب معاوية محمد نور من على البعد، إذ كتب ونشر بالقاهرة، وانصبت جل كتاباته ليس في العمل الروائي بمعناه العريض؛ وإنما يُمكِن إدراجها في إطار

الأدب المقارن، لذا لم يكن لها ذات الصدى الذي تركته روايات ست الدار، بسبب عدم وصولها لأيدي جمهرة القراء بالسودان.

الرواية عقب الاستقلال وحتى نهاية ستينات القرن المُنصرِم

ولئن كانت أعمال ست الدار ومعاوية محمد نور تُمثل حقبة ما قبل الاستقلال، فقد شهدت حقبة ما بعد الاستقلال حتى نهاية ستينات القرن الماضي، شهدت شُحاً نسبياً في العمل الروائي. يعود ذلك لعوامل عدة، لعل من أهمها أن المُستعمر عقب جلائه لم يترك بصمات واضحة، ولم يؤثر تأثيراً ذا بال في مكونات الهوية السودانية. ولئن كانت أسس الهوية تتمثل في نظر الكثيرين في وحدة التراب والدين واللغة، فلم يستطع الاستعمار خلخلة تلك الثوابت. صحيح أنه عمِل على تجزئة ربوع البلاد الواحِدة ما بين شمال وجنوب، ما أدى لمآسٍ وصراعات دامية عقِب استقلالها. ولئن قامت حركات نضال ضد المُحتل، فهي غالباً ما تعلقت بقضايا التحرر الوطني، وبسبب تدخل الأجنبي أحياناً في بعض العادات والتقاليد، كالثورة التي قادها عبد القادر ود حبوبة في منطقة الحلاوين، وهي انتفاضة محدودة عبَّرت عن أشواق الناس للتحرر، أكثر منها دفاعاً عن هوية مُستهدفة. الدليل على ذلك أن التاريخ أثبت خطل رأي ود حبوبة وصواب رأي المستعمر في حربه على الخِفاض الفرعوني الذي نحاربه الآن بالتشريعات والندوات التوعوية. ومما يدل على أن الاستعمار البريطاني لم يترك بصمات ذات بال على الهوية الوطنية السودانية، يُمكننا مقارنة الحال بالرواية الأفريقية لما بعد الاستقلال في المستعمرات الفرنسية. إذ برزت للوجود عشرات، بل مئات الروايات عقب جلاء الاستعمار الفرنسي بسبب أن هذا الأخير لم يكن يهدف لنهب ثروات الشعوب كما فعل رصيفه الانكليزي؛ وإنما كان يهدف في المقام الأول لغزو العقول وتغيير معالم الهوية. لذا كان خروجه بداية لسيل من الأعمال

الروائية هدف جلها لترميم الشرخ الذي تركه، سواء في الممارسات الدينية، أو مُحاربة اللغات الوطنية، أو في نُظم التعليم من جهة، ولإبداء الامتعاض للتردي الذي آلت إليه الأوضاع في ظل إدارة الحُكام الوطنيين من جهة أخرى. ولعلنا نجد إشارات قليلة لما ورد في الرواية الأفريقية عقب الاستقلال في رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" للطيب صالح، التي صدرت في العام 1967م، والتي أثارت في جزئية منها مسألة العلاقة التي كانت سائدة بين المُستعمِر والمُستَعمر. إذ تناولت الرواية حيرة البطل، مصطفى سعيد، بين ذكريات لندن وبين واقع الحال بقريته في الأصقاع النائية لشمال السودان، كما عبَّرت عن عدم الرضا عن مآل الأمور في ظل حكم السلطات الوطنية، وهو ما أثاره بالفعل رصفاؤه في المستعمرات الفرنسية مثل السنغالي سمبن عثمان (Sembène Osman) في روايته "الحوالة"، وشيخ حميدو كان (Cheikh Hamidou Kane) السنغالي أيضاً في روايته "المستقبل الغامض"، والمغربي إدريس شرايبي في"الحضارة أمي"، وغيرهم الكثير من الكُتَّاب الأفارقة. ويتمثل العامل الثاني في شُح الأعمال الروائية في السودان عقب الاستقلال في أن المستعمر، وعلى الرغم من تحكُّمه في مصائر العِباد ونهبه لثروات البلاد، خلَّف وراءه مؤسسات فاعلة ومنضبطة في الخدمة المدنية والقضاء والبُنية الاقتصادية. والأهم من ذلك أنه ترك نسيجاً اجتماعياً متجانساً، على الأقل في شمال البلاد. ومن علامات ذلك التجانس الخضوع لسلطة زعماء القبائل من نُظار وعُمد وشيوخ قرى وخطوط. زد على ذلك الترابط الأسري، والتكافل، وتواضع التطلعات الإنتاجية، واستقرار الناس في مناطقهم دون تفكير في هجرات، داخلية كانت أم خارجية. كانت الإمكانات المتوفرة تلبي حاجات الناس، إذ لم تشهد البلاد انفجاراً سكانياً كالذي نشهده اليوم. قلة السكان هذي ساعدت في التوفر النسبي للخدمات، وجودة ما يُقدَّم منها في الريف بفعل القوانين الصارمة التي خلَّفها الاستعمار في مجال إدارة

المرافق الخدمية. كما لم يكن الناس يومها يُثيرون قضايا مثل الهوية أو اقتسام السلطة والثروة أو التهميش، إذ كانوا مُكتفين بما ينتجون، متأقلمين مع نمط حكمهم التقليدي المتمثل في الإدارات الأهلية. عوامل الاستقرار تلك حرمت الروائي من مصدر إلهامه. ذلك أنه كلما قلت دوافع التمزق في المجتمع، وكلما كانت الأوضاع مُرضِية، قلَّ الإلهام، والعكس صحيح. نذكر من الأعمال الروائية لهذه الحقبة رواية "موت دنيا" لمحمد أحمد محجوب والدكتور عبد الحليم محمد، وفيها يُكثر الكاتبان من الوعود والبشريات بمستقبل مُشرِق على موعد مع البلاد.

توجهات الرواية منذ أواخر ستينات القرن الماضي

يجد الباحث عنتاً في الفصل بين ما هو أدبي وما هو اجتماعي في الرواية السودانية خلال الخمسين عاماً المُنصرمة، إذ أصبح الفارق بين المسارين ضئيلاً جداً، بل أنه لا يكاد يُرى أحياناً. ومرد ذلك أن البلاد شهدت إبان الخمسة عقود الفائتة تحولات عميقة في ميادين السياسة والاقتصاد، ما انعكس بالضرورة على الحياة الاجتماعية، ووجد بالتالي طريقه إلى الإبداع الأدبي. نذكر من تلك التحولات على سبيل المثال لا الحصر:

- التوسع الملحوظ في التعليم عقب الاستقلال، الأمر الذي أدى للتضعضع النسبي للنفوذ الطائفي الذي كان سائداً عقِب الاستقلال، وما كان يقوم به من تحجيم للمعرفة، إما بسبب نُدرة في الموارد، أو عن تخطيط وقصد. ومعلوم أن التعليم يُحرر العقول من الولاءات الضيِّقة، مما يلحِق أبلغ ضرر بمصالِح الطائفية، ويتيح للروائي التفرغ للشأن العام. ولمزيد من محاربة الآثار المترتبة على الطائفية يقول سمير محمد علي: "أما العامل الأساسي في تلاشي الطائفية على المدى البعيد هو التعليم الجيِّد ذو المنهج المتوازن

والمتنوع والمتدرج الذي يطور مهارات العقل الناقد والفكر المستقل والثقة بالنفس وتحمل المسئولية".[4]

- الآثار التي ترتبت على إلغاء الإدارة الأهلية من نُظار وعُمد وشيوخ قرى وخطوط، وقد كانت تُمثل دُعامة للترابط والتكافل والنسيج الاجتماعي، وضامناً للسلم بين شتى مكونات المجتمع الريفي. قامت أنظِمة الحُكم التي أعقبت الاستقلال، سيما الشمولية منها، قامت بخلخلة تلك الإدارات التقليدية، وإحلالها بأخرى حديثة تحت شعار "تسليم السلطة للجماهير". ترتب على ذلك توسع غير مسبوق في المواعين الإدارية، إذ أصبح الكُل رئيساً لأمر ما. أدى ذلك التوسع في المهام الإدارية، مع غياب ما يُنظمها من قوانين ولوائح، أدى لانفراط في الإدارة وهدر للموارد المالية ترتب عليه تدهور مريع في الخدمات.

- ظهور التلفاز؛ إذ بعد أن كان المُشاهد يقرأ ويتخيَّل، أصبح الآن يُشاهد ويرى رأي العين. أضحى يُشاهِد الهندام الأنيق، والمسكن الراقي، والأثاث المُبتكر، والسيارات الفارهة، والمآكل الشهية. نقلت إليه الشاشة البلورية ما تهيؤه مجتمعات أخرى مُقتدرة لمواطنيها من رفاهية ورغد في العيش. حينها كبُرت التطلعات عصية التحقيق وأدت، مع قلة الإمكانات المُتاحة، لليأس والتمزق في بعض شرائح المجتمع. وضع ينطبق عليه المثل السائر"العين بصيرة واليد قصيرة". ترتب على ذلك خراب في الذمم وظهور بواكير الفساد مع ما يستتبع ذلك من تغير في السلوك المجتمعي كانت له الرواية بالمرصاد.

(4) سمير محمد علي ـ مُجتزأ من كتابه "الأحزاب السودانية والجاهلية السياسية"، فصل الطائفة عن السياسة وإصلاح الديمقراطية في السودان، أخبار السودان، موقع الراكوبة الالكتروني، alrakoba.net، تاريخ النشر 2020/7/20، تاريخ الاطلاع 2020/7/25.

- أدلجة نُظم الحكم التي تأرجحت ما بين اليسار واليمين، وبمختلف المسميات. قد تكون شعارات تلك الأيديولوجيات صادقة في مسعاها لتنمية الوطن ورِفاهية المواطن، بيد أنها غالباً ما تُخيب الآمال عند إخضاعها للتطبيق على أرض الواقع، ويصدق عليها القول المشهور "إن كل إيديولوجية تنتصر؛ إنما تسعى لحتفها". زد على ذلك أنه لا توجد في تاريخ البشرية فكرة للحكم نالت رضاء الكل، إذ لابد من وجود كيانات تعارضها كلياً أو جزئياً مُستخدمة مختلف أنواع الوسائل، سلمية كانت أم عنيفة، للعمل على ما يعيق تطبيقها. هنا تنشأ صراعات تؤثر بالضرورة على حياة الناس، وتجد طريقها تلقائياً لما يسطره المبدع باعتباره المرآة التي تعكس ما يدور في ثنايا المجتمع.
- ظهور رأسمالية طفيلية تُصاحبها طائفة من الوسطاء يعملون ضد تنمية الوطن ورفاهية المواطن مُستغلِّين هشاشة الدولة وغياب ما يردع من قوانين. لذا، فحين يزداد الأغنياء ثراءً، والفقراء بؤساً، لابد أن يخلق ذلك غُبناً اجتماعياً ينعكس مُباشرة في شتى ضروب الإبداع، وأولها الرواية.
- هجرات تمت بسبب الكوارث الطبيعية من جفاف وتصحر، والنزاعات المُسلحة، والبحث عن العمل، والعلاج والتعليم بعد خراب البنى التنموية في الريف، وفشل الإدارات المُستحدثة في توفير أدنى مُتطلبات الاستقرار.
- تهميش الريف الذي كان حتى إبان الحقبة الاستعمارية يدعم المدينة، فانقلب الوضع رأساً على عقب، إذ أصبحت الأخيرة هي من يدعم الأول. بل إن المدينة ذاتها تحولت لريف بفعل الهجرات. أدت الهجرات الداخلية، والحدود المُشرعة للقادمين من البلاد الأخرى، أدى ذلك لاكتظاظ المدن بساكنيها فترتب على ذلك تفكك أسري، واندثار لقيم القرية من تكافل

ومروءة وشهامة. في حين تسببت الهجرات والاغتراب في نزوح الكفاءات وهجرة العقول.

كان لابد أن تجد تلك التغيرات الجوهرية صدى في الإبداع الأدبي عموماً، وفي الرواية على وجه الخصوص. وقد سبقت الإشارة إلى أن الرواية دائمة التواطؤ والتآمر مع الواقع الاجتماعي. وبالفعل، فقد شهدت الخمسين عاماً الأخيرة انفجاراً وتراكماً غير مسبوق في الأعمال الروائية. الغالبية العُظمى منها لم تجد طريقها للنشر.

تفاوتت أساليب الروائيين في تناولهم للواقع الاجتماعي، إذ منهم القاصون، أي كُتَّاب القصة، سواءً كانت طويلة أم قصيرة. وهنا ينبغي إيضاح مفهوم غالباً ما يؤدي للخلط في الأذهان، ألا وهو الفرق بين القصة والرواية. فالقصة عبارة عن عمل أدبي قد يكون مكتوباً، أو يُسرد شفاهية. يختلف عن الرواية في أنه يشتمل على مُعضلة يتوجب على القاص حلُّها. لذا، يُمكن اعتبار أن جل الأفلام السينمائية إنما تستند على قصص، وليس على روايات. نقول جلها؛ لأن البعض منها تم تطويعه ليكون مادة لأفلام ومسلسلات كليالي الحلمية، ورأفت الهجان، وبين القصرين، وقهوة المواردي، وما شابهها. وهناك أمثلة يصعب حصرها في الأدب الغربي لروايات تحولت هي الأخرى لأعمال سينمائية على شاكلة وزرنق هايتس، وأوليفر تويست، وجان إير، وتيتانك في الأدب الإنكليزي، ووداعاً ملكتي للروائي بينوا جاكو، والبؤساء، رائعة فيكتور هيجو في الأدب الفرنسي على سبيل المثال لا الحصر. تهتم القصة بجزئية بعينها في الحياة الاجتماعية وتُثير القضايا المتعلقة بها. وقد ينبش القاص في الماضي مستلهماً منه الدروس والعبر كما هو الحال في الروايات المستندة على وقائع وأحداث تاريخية. وخلافاً للقصة، لا تتطلب الرواية حلولاً آنية لما يُطرح من قضايا اجتماعية، أو مسائل فلسفية. ذلك أن كاتبها، وفي تنقيبه عن تجارب الماضي، وتأمله في واقع

الحاضر، يدع حل ما يثير من ظواهر اجتماعية سالبة، أو مسائل فكرية معقَّدة، يدع حل ذلك للمستقبل؛ مستقبل قد لا يراه هو ككائن ذي عمر محدود. ومما يُميز القصة، أنها لا تتقيد بزمان أو مكان، كالقصص القرآني، أو تلك التي كانت تحكيها الجدات لأحفادهن في الليالي القمرية كقصص ود النمير وفاطمة السمحة، والغول ذي الرؤوس السبع، أو القصص الشائعة في التراث العربي مثل علي بابا والأربعين حرامي، وأبو زيد الهلالي، وسندريلا، وما شابهها. لذلك يوجد قاصون بالسودان تشبه أعمالهم المقالات بسبب أنهم يثيرون قضايا حياتية آنية، ويسطرون ما يرونه حلولاً ناجعة لها.

أما الروائيون، فمنهم من اكتفى بعرض حقائق يعلمها القاري؛ وقد قدمها إليه في قالب أدبي يلتزم فيه الراوي الحياد وعدم القفز لاستخلاص النتائج، تاركاً ذلك لمن يطلع على العمل. وآخرون اعتمدوا الانتقاد الصريح وسيلة للسرد، حتى ليصبح عمل أحدهم أقرب للخطاب السياسي منه للعمل الأدبي. وكان جل هؤلاء من أدباء المهجر الذين لا يطالهم سيف الرقابة، ولكن على الرغم من أن إبداعاتهم يطالها الحظر داخلياً. وطائفة سطرت أحداثاً معاصِرة، تذكر تلك الأحداث بأسمائها، وتستشهد بأقوال لكتَّاب ومؤرخين ومُفكرين آخرين، الأمر الذي يُجرد العمل من خاصيته الأدبية التي تستند على فخامة الكلمة، والتجرد، والحبكة، فتصبح الرواية أقرب للوثائق التاريخية منها للعمل الأدبي. ولجأ بعضهم لاستخدام الرمز خِشية الرقابة، ونفر آثر السلامة مُستمداً مادته من ماض غابر. بيد أن شيئاً واحداً يربط بين هؤلاء جميعاً، ألا وهو الحنين للماضي، وتمجيد مآثر القرية بعد أن خاب الأمل في الحياة الحضرية. وفي واقع الأمر، فإن محاولة الهرب إلى الماضي والعودة للجذور ليست بالأمر الجديد في عالم الآداب والفنون. فقد لجأ إليها الكتَّاب والشعراء والمغنون الأمريكيون من أصول أفريقية بعد أن يئسوا من التأقلم مع مجتمعاتهم الجديدة، فأصبحوا

يعزُّون النفس بأمل الرجوع للأصل، أي لقارتهم التي نُزِعوا منها قهراً. نذكر من كتَّاب الجيل المُعاصِر: إبراهيم إسحق (حدث القرية، وفضيحة آل نورين وأخبار البنت مياكايا)، وخالد عويس (الرقص تحت المطر)، وأبو بكر خالد (بداية الربيع)، وبشرى الفاضل (حكاية البنت التي طارت عصافيرها)، وعبد العزيز بَرَكة (الرجل الخراب) و(الجنغو مسامير الأرض)، ثم رواية "مندوكرو" للدكتور مروان حامد الرشيد، وهو عمل يُعالج بعمق مسألة الهوية والعلاقة بين الشمال والجنوب، وكذلك روايته "الغنيمة والإياب"، وهي رواية ذاتية تتجلى فيها الذاكِرة التاريخية، وسِعة الخيال، والأسلوب الجزِل. ومنهم بابكر ديومة في "الوجيه كمال"، و"العودة"، و"عُمدة قريتنا"، و"ضربة البداية"، وآخرون كُثر لا يتسع المجال لذكرهم في هذه العُجالة.

الرواية النسوية

مثلما يوجد كتَّاب مقال وقاصون وروائيون، توجد كذلك بالسودان كاتبات مقال أدبي مُجيدات؛ ومن المُخضرمات منهن نذكر على سبيل المثال لا الحصر: آمال عباس، زينب الفاتح، وبخيتة أمين اللاتي انصب اهتمامهن على قضايا اجتماعية عامة، وكاتبات مقال ذي صبغة سياسية اجتماعية كُثر، على وسائل التواصل الاجتماعي في يومنا هذا. ولجت المرأة السودانية المُعاصِرة مجال القصة في ثمانينات القرن المُنصرم فكتبت ملكة الفاضل "جدان قاسية"، وأميمة عبدالله "ذاكِرة مشلولة"، وبثينة خضر مكي "أغنية النار" و"حجول من شوك". ويُلاحظ أن عناوين الروايات ذاتها تدل على محتواها، حتى قبل تصفُّحها. تتسم الرواية النسوية السودانية بطابع الالتزام. وكما فعلت ست الدار في منتصف القرن المنصرم، ركزت الروائية المعاصِرة على الأوضاع المُهينة للمرأة، وإعطاء المجتمع السلطة المُطلقة للرجل الذي يأمر وينهي، ويتصرف

أحياناً بمنتهى الأنفة في مملكته الأسرية. يخلص الناقد أو القارئ الحصيف لأمور ثلاثة عند اطلاعه على الروايات النسوية:

- أولها: تتخذ الروائية من عالمها الأنثوي الداخلي وعالم بنات جنسها المادة الرئيسة لعملها. عالم يضج بالشكوى والمرارة مما تتعرض له الأنثى في المجتمعات الشرقية من ضيم وهضم للحقوق. تشغل تلك المرارات الروائية في الغالِب الأعم عن النظرة الشمولية لمكونات المجتمع الأخرى وقضاياه، فيغيب الشأن العام عن جل العمل الروائي الأنثوي. وحتى إن وجد شيئاً من ذلك يكون هامشياً لا يُقارن بما تحتوي عليه الرواية الذكورية، أو كما يقول ممدوح فراج النابي: "منذ رواية الفراغ العريض (1970) لملكة الدار محمد، وجل الكتابات النسوية السودانية مشغولة بالواقع الاجتماعي القاهر، وعراك المرأة من أجل الظفر بحقوقها".[5]

- ثانيها: لئن كانت بعض الروايات الذكورية تتحامل على المرأة وتُحمِّلها تبعات الكثير من العادات الضارة كتعقيدات الزواج واعتباره موسماً للتفاخر وما يترتب على ذلك من عواقب وخيمة كالعزوبية والعنوسة، وإصرار بعضهن على ممارسة عادة أخرى ذميمة لا تقل ضرراً كالخِتان، لا تدافع الروائية عما يُوجه لبنات جنسها من اتهامات، وكأن الأمر لا يدخل في دائرة اهتماماتها.

- ثالثها: تولي الروائية جل عنايتها للسرد، غير آبهة بجودة الأسلوب واختيار القالب اللغوي السليم. ولئن كانت القراءة هي السبيل الأمثل لتحسين القدرات اللغوية، فإن فرص المرأة في ذلك جد قليلة بحكم المسئوليات الملقاة على عاتقها، سيما مع ترسخ المفهوم الشائع لدى الرجل الشرقي الذي يعتبر

(5) ممدوح فراج النابي، "امرأة وواقع جديدان، بانوراما الكتابة النسوية السودانية"، مجلة الجديد، aljadeedmagazine.com، لندن، تاريخ النشر 2019/01/01، تاريخ الاطلاع 2019/01/05.

المُشاركة في الأعباء المنزلية تقليلاً للرجولة. زد على ذلك التربية الخاطئة للجيل الحديث، إناثاً وذكوراً على حد سواء، الذين أصبحوا يعتمدون على الأبوين في أخص خصائصهم. وحتى حين اندثر الكتاب نوعاً ما وحلت مكانه الشبكة العنكبوتية، فقلَّ أن يتوفر للمرأة، باستثناء المُتخصصات منهن، قلَّ أن يتوفر لديها الوقت لمُطالعة مقال أو لقراءة رواية، مما يحرمها من فرصة الاطلاع، وهو أمر لازم لتنمية الملكات اللغوية. ذلك القصور في الإطار اللغوي والجمالي في الكتابة هو ما أشار إليه عماد البليك قائلاً: "برغم التحديات العديدة، فإن المرأة اليوم صارت موجودة على الصعيد الصحافي والكتابة بشكل عام ومشاركة في الإبداع عامة بشكل فاعل، لولا أن الإطار النوعي والجمالي لا يزال ينتظر الكثير من العمل".[6]

أدب المهجر

عرف السودانيون الاغتراب والهجرة منذ أمد بعيد، وقد زادت وتيرتهما عقب الاكتشافات النفطية الهائلة في دول الخليج العربي، والطفرة في الأسعار العالمية للطاقة من ناحية، وانفتاح فضاءات جديدة للمُهاجِر ممثلة في أمريكا والبلاد الأوربية من ناحية أخرى، يقصدها المغترب أو المُهاجر تارة لطلب العِلم، وتارة للبحث عن الرزق، وأحياناً للنجاة من أوضاع سياسية واقتصادية خانقة تستوجب الهرب. وبالطبع، فمن الطبيعي أن يحمل المهاجر معه لوعة فراق الجذور، والاشتياق لمن تركهم وراءه. لوعة واشتياق لابد أن تطفيا للسطح في إبداع المهاجر أو المُغترب ذي الملكة الأدبية. ولعل الابتعاد عن ثرى الوطن وما

(6) عماد البليك ـ "الكتابة النسوية في السودان، إطار معرفي"، مجلة الجديد، aljadeedmagazine.com، لندن، تاريخ النشر 2019/1/1، تاريخ الاطلاع، 2019/1/5.

يستتبع ذلك من ألم وحسرة لهي السِمة الغالِبة على أدب المِهجر. ما يُفاقِم من أسى المهاجر أو المغترب، اصطدامه بواقع يختلف عما كان يأمل ويتصور. فمن مضايقات قد يتعرض لها أحياناً من مواطني ما يقيم بها من بلاد، إلى حتمية التعامل مع فئات أخرى وافدة قد تتعارض عاداتها وتقاليدها وممارساتها عما ألفه السوداني وهو بأرض الوطن. بيد أن ذلك لا ينفي أنه تتوفر لكاتب المِهجر مزايا لا يتمتع بها رصيفه المُقيم بالسودان. إذ بالإضافة للحنين الجارف للعودة للجذور، وهو عامل مهم يحفز على الإبداع؛ فإنه يرى الوطن وهمومه بعين مُبتعدة عن زحمة الأحداث بالداخِل. كما أنه يشعر بمأمن من الرقابة، سواء أكانت من لدن السلطات أم نابعة من قناعات المجتمع. هنا، أي في المهجر، يكتب الروائي بحرية مُطلقة، وبخاصة في البلاد التي لا يوجد فيها مسكوت عنه. يكتب بحرية لقناعته بألا حجر على آرائه، ولربما راوده التفكير بأن أعماله قد لا تصل ليد القراء في بلاده، ولا يطلع عليها من بني جلدته سوى الذين يُشاركونه الاغتراب ويحملون ذات الرؤى والأفكار. يكتب، إذن، وكأنه يهتدي بالمثل المُبتذل "بلداً ما بلدك أمشي فيها عريان"! أما كاتب الداخل، فيجد نفسه مضطراً لمراعاة قيم المجتمع، آخذاً في الاعتبار سيف الرقابة، متجنباً التصريح بالمسكوت عنه كالدين والخمر والنساء، وهي في الرواية بمثابة التوابل في الطبخ. لذلك يلجأ روائي الداخل للرمز. رمز قد يكون مُبهماً في جل الأحيان، مما يقلِّل من أثر الرسالة التي يود إيصالها للقارئ، تاركاً هذا الأخير في حيرة من أمره، وفي عنت ومعاناة في سبيل فك ألغاز ما يقرأ. ولعل أحد أسباب، بل من أهم أسباب نجاح رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" أن كاتبها أثار المسكوت عنه إبان سرده. وجد الكاتب الجرأة لذلك لأنه هو نفسه من كُتَّاب المهجر نظراً للأعوام العديدة التي قضاها بالخارج متنقلاً بين شتى الوظائف، وإن كان ينفي عن نفسه صفة الهجرة، مفضلاً عليها الانتماء لشريحة المغتربين. كانت تلك

بدايات شجعت الروائي السوداني المعاصر وأعطته الجرأة كذلك لتناول المزيد من المسكوت عنه. إضافة إلى ذلك فإن الكتابة للذين يكتبون بغير العربية تُعطي صاحبها حرية التعبير لأن وقع المُفردة الأجنبية، أو ما يُعرِّفه علماء اللغة بشُحنتها الدلالية، يكون أهون، وأكثر قبولاً عند القراء من المُفردة العربية. نذكر من كُتاب المهجر جمال محجوب السوداني بريطاني الجنسية. من أعماله "النوبي الأزرق"، و"الناقِلة"، و"السفر مع الجِن". ومنهم ليلى أبو العلا في روايتها "كلمات زقاق"، وترجع أحداث الرواية للحقبة الاستعمارية. من أعمالها كذلك "كلمات حارة" و"المئذنة". كتب هذان الكاتبان باللغة الإنكليزية، قبل أن تُترجم أعمالهما لعدة لغات. ومن الروايات التي استمدت أحداثها من الحقبة الاستعمارية كذلك "السودان... الحلو والمر"، لأمير تاج السر، حيث يُنظر للسودان في هذه الرواية بعيون رحالة أجنبي، وتندرج الرواية في إطار أدب الرحلات أكثر من انتمائها للأعمال الأدبية الصِرفة. كتب بالإنكليزية كذلك فرانسيس دينق "طائر الشؤم"، رواية تتحدث عن الشرخ القائم في العلاقات بين الشمال والجنوب حين كانا قُطراً موحَّداً. ويعني طائر الشؤم نذيراً للخراب في مُعتقدات قبائل الدينكا. ويتضِح للقارئ لجوء الكاتب للأسطورة في إشاراته المتعدِّدة لتقمص روح الأسلاف، وتقديس بعض الحيوانات.

العِلَّة في عدم ذيوع الرواية السودانية خارج الحدود

ذاعت الرواية السودانية التي كُتبت في المهجر وتُرجمت للغات الأجنبية فولجت العالمية، على النقيض من جل ما كُتب بالداخل؛ فلم يحظ بالانتشار خارج الحدود. تكمن العِلَّة في ذلك لعوامل عدة: أولها ثنائية الهوية السودانية ما بين العروبة والإفريقية. فالعرب لا يتذوقون المنتج السوداني عموماً، سواء أن كان ذلك في الموسيقى أم في القضايا التي يثيرها الكاتب السوداني، والتي قد تختلف جذرياً مع القضايا محل اهتمام آداب بعض البلدان العربية الأخرى،

سيما تلك التي تأثرت آدابها لحد كبير بثقافة المُستعمر. أما الإفريقي، وإن كان يجتهد في تذوق الغناء والأدب السوداني، بيد أن اللغة قد تقف عائقاً دون ذلك. ولئن كان الكثيرون يميلون لتعريف الهوية السودانية بأنها عربية إفريقية، فيبدو أنها تفتقد للقبول العربي، وللتفهم الأفريقي. أما العامل الثاني فيتمثل في القصور في مجال الترجمة وأثرها في تقديم الإبداع السوداني للعالم الخارجي، أي لأولئك الذين لا يتحدثون العربية. عامل ثالث يتلخص في ظاهرة العداء والغيرة، إن لم نقل الحسد، في نجاح الآخرين. والدليل على ذلك عدم الاحتفاء بالمُبدع السوداني إلا حين يرحل، حتى لكأن وجوده يضايق الأحياء. ثم أن جل الكُتّاب الذين لمع نجمهم، وتم تكريمهم عاشوا بالخارج؛ أما بالداخل فلا أحد يعبأ بتفخيم المُبدع كما يحدث في العالم أجمع، الذي يُمجِد مبدعيه في كافة مجالات الفنون، ويُعلي من شأنهم، ويعمل على إذاعة صيتهم في المحافِل الدولية باعتبارهم ثروة قومية. عامل آخر، وليس أخيراً، هو افتقار السودان للاستراتيجية الإعلامية الفعالة، ليس فقط في ذيوع ثقافته من أدب وفِكر؛ وإنما حتى في التسويق لإرثه الحضاري. وحتى حين يجتهد الإعلام في تقديم شيء للإرث الثقافي، تكون الربحية هي هدفه الرئيس، إذ تراه يُقدِّم الفولكلور الشعبي الذي ينسى المُشاهد رقصاته حال اسدال الستارة، أو بيع الأدوات الشعبية وعلى رأسها الطِباق، ومستلزمات مراسيم الزواج من بخور وحِناء. ولعل وجود السودان بين حضارتين ضاربتين في القِدم، ونعني بهما الحضارتين المصرية والأثيوبية، لم يُمكِّن السودان من الترويج لما يمتلك من آثار حضارية تُماثل تلك الموجودة في الحضارتين اللتين أتينا على ذكرهما. بمعنى آخر فقد عُتِّمت هاتان الحضارتان على السودان حضارياً وثقافياً، وحتى سياحياً. هنالك أيضاً عامل التقليدية والاكتفاء بما تطرق لسمع الناس وأصبح، لكثرة تداوله، من الثوابت المفروغ منها؛ ثوابت تُعيق الانفتاح على الجديد. فالكاتب عندنا هو

بالضرورة الطيب صالح، والرواية لا تعدو أن تكون "موسم الهجرة إلى الشمال". إن سودان اليوم بتعقيدات الحياة فيه، وبالتطور الذي بلغه على كافة الصُعد، كل ذلك لا يتيح لرواية بعينها صرف الأنظار عن محاولات إبداعية أخرى أكثر مُعاصرة تعكس مشاعر وأحاسيس وغُبن شاب سوداني اضطرته الظروف لضرب عرض البحر مُخاطِراً بحياته. وحين بلغ اليابسة ظل محبوساً في مُخيَّم بائس في مدينة كاليه، تذله الشرطة الفرنسية في الشرق، وتتمنع عليه الشرطة البريطانية في الغرب. ولئن كان البعض يرى في رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" سقفاً للرواية السودانية، فإنه يغلق بذلك الباب على أية عبقرية أخرى قد يجود بها الزمان على أحد أبناء حواء السودانية في مجال الإبداع الروائي. ولئن كان الطيب صالح يُمثل نعمة على السودان من حيث رفع اسم البلاد عالياً في مجال الإبداع الأدبي، فقد كان نقمة على كُتّاب الرواية الآخرين من السودانيين الذين ظلوا دوماً في جلبابه. ولعل ذلك ما يعنيه علاء الدين محمود بقوله:

> أحدثت تجربة الطيب صالح ميلاداً جديداً للرواية السودانية إلى حد قول بعض النقاد إنها مثلت سقفاً يصعب على الروائيين السودانيين تجاوزه ... وربما كان لذلك الاهتمام الشديد الذي وجده الأديب الكبير أثره الواضح في دخول الروائيين السودانيين إلى منطقة الظلال خلف الأضواء الكاشفة.[7]

ظاهرتان أخريان تقعدان بالبلاد، ليس فقط في المجال الأدبي؛ وإنما في مجالات أخرى لا يحصيها العد: أولاهما البطء في التأقلم على الجديد، بطء غالباً ما يحرم الناس من الالتفات لآفاق أخرى قد تكون أكثر رحابة. أما الظاهرة

(7) علاء الدين محمود، مُلحق الخليج الثقافي، www.alkhaleej.ae ، تاريخ الاطلاع 2019/6/10.

الأخرى فهي التواضع المُخِل، حتى أن المُجيد من السودانيين ليتردد كثيراً قبل النُطق بلفظة "أنا". يعود ذلك للتربية الخاطئة التي تُحارب الاعتداد بالنفس، وتُثبط العزائم، وتُقلِّل من الطموح، وتعمل على ضمور الذات. وبالطبع لا ينطبق ذلك على الكل، سيما في مجال الرواية، إذ إن هنالك أعمالاً ضعيفة من حيث البنية الفكرية والأطر الجمالية، بيد أن كُتَّابها يملأون الدنيا ويشغلون الناس. تتصدر صورهم الشاشات البلورية، الصحف والمجلات. ولا يخطرن ببال أحد أن عالم الرواية بعيد عن الصداقة والعداء، والترضيات والمساومات، والمُجاملات والكيد. إنه لا يختلف كثيراً عما يدور في دنيا السياسة والفن والرياضة والمال والأعمال، بل إنه ليفوقها شراسة في بعض الأحايين. ومن العوامل التي تحول دون ذيوع الرواية السودانية خارج الحدود كذلك، إشكالية كِتابة الحِوارات بالدارجة، وهو ما يروق لقراء الداخل، في حين كتابتها بالفُصحى ما يؤدي لذيوع العمل خارِجياً. هنالك مدارس أدبية كثيرة لا ترى غضاضة في استخدام الدارِجة في الحوار، شريطة أن تكون اللغة الدارجة المُتفق عليها، أي تلك المُستخدمة في الحضر، نظراً للتداخل اللغوي بين قاطنيه. من هنا جاء انتقاد البعض لبعض كتابات إبراهيم إسحق واتهامهم للكاتب بتخريب اللغة بسبب ميله لاستخدام لغة الحوار بلهجة الأرياف في دارفور. أضف لذلك عدم تفرغ الروائي للكتابة فقط، كما يحدث في أجزاء أخرى من العالم. ومعلوم أن التفرغ لأمر جد مهم في مهنة كالكتابة من حيث أنه يؤدي للتركيز، والتجويد، والابتكار. ففي السودان لا يوجد كاتب بوسعه الاعتماد على الكتابة في معيشته، ولا شاعر يكسب من شعره ما يقوم بأوده، ولا رسام يسترزق برسوماته. وهنالك عدم فعالية وعزوف المواعين الفنية كالسينما والمسرح التي تُجسِّد الرواية، وتعمل على ذيوعها، وتعريف القراء بها داخِلياً وخارجياً. فلئن نظرنا للعالم الخارجي لتأكد لنا الدور المحوري الذي تقوم به السينما والمسرح في ذيوع الأعمال الروائية. وقد لا

يتطلب إخراج نص ما على خشبة المسرح الكثير من الجُهد والمال، بيد أن ما يقف عائقاً دون ذلك لهي الأنظمة الحاكِمة، سيما المُتسلط منها، التي غالِباً ما تنظر للنشاط الأدبي وتصنِّفه كغريم لها، يسعى لتقويض سلطتها.

آفاق مستقبل الرواية السودانية

لا يُمكِن لباحث التنبؤ بما ستكون عليه الرواية في مستقبل الأيام؛ فذلك رهن بالمُعطيات، وبالتغيرات التي ستحدث في الحياة الاجتماعية، ورهن كذلك بالمدى الذي ستبلغه وسائل التواصل الاجتماعي التي أصبحت منافِساً حقيقياً للكلمة المكتوبة. بيد أنه، وكما ورد القول آنفاً ولا نرى من حرج في تِكراره، بأن الرواية ستظل وليدة زمانها، تتأثر بما يدور في التحولات المجتمعية، وبالتقدم في الفضاءات الإلكترونية. فاليوم ما يزال الروائيون السودانيون، نساءً ورِجالاً، يكتبون. بيد أن أعمال القليل منهم يُحالفها الحظ في الوصول ليد القراء، وذلك لأسباب نذكر منها:

- كان الناشر فيما مضى يتريث في قبض مستحقاته إلى أن يتم تصريف الكتاب، أو جزء من طبعته الأولى على أقل تقدير. أما الآن، فلا يُقبل عمل للطباعة ما لم يقم المؤلف بتسديد القسط الأكبر من التكلفة. يتذرع الناشِر، وهو مُحِق في ذلك، بقلة الإقبال على القراءة، وبالتالي اقتناء الكتاب. ثم إن ثقافة القراءة الشائعة تُعيق عملية الشراء، إذ يُمكِن أن يتداول العشرات النسخة الواحدة، يتناوبون على قراءتها. فثقافة القارئ تفترض أن الكتاب يُستلف، أو يُهدى ولا يُباع، مُتجاهلاً معاناة كاتبه في سبيل وصوله لمراكز البيع. وربما تعود ظاهرة استلاف الكتاب للضائقة المعيشية التي تقتضي ترتيب الأولويات؛ فشراء المعرفة بُنية فوقية تلي إشباع البطن. وبما أن الغالبية العظمى ممن يكتبون لا تتوفر لديهم الإمكانات المادية اللازمة، تظل

ابداعاتهم حبيسة الأدراج، الأمر الذي يعمل على تثبيط هممهم، وصرفهم عن مزيد من الإبداع.

- عزوف دور النشر عن نشر روايات الشباب المغمورين، والاهتمام بالمؤلفات الرائجة، كالدينية والعلمية، وبخاصة تلك المُتعلقة بتقنية المعلومات. كما أصبحت الشبكة العنكبوتية بديلاً ومُنافساً لهذه الدور، إذ باستطاعة القارئ اليوم الاطلاع على ما يروقه من أعمال أدبية دون تكلِفة تُذكر.
- غِياب الدولة في مجال تشجيع الآداب، وتسهيل قنوات الطِباعة، بل ووضعها للعراقيل أحياناً في سبيل ذيوع ما لا يتفق مع رؤاها وخطها السياسي.
- غياب الدور المنوط باتحادات الكُتّاب في رعاية الناشئين في هذا المجال، وتقديم الدعم لهم كي ترى أعمالهم النور. أضف لذلك انتقائية تلك الاتحادات في احتضان الأعمال التي تروق لها وِفقاً لرؤاها المذهبية.
- ولعل من أهم التحديات التي تواجه الرواية السودانية اليوم هو شبه غياب الناقِد الأدبي المؤهل الذي يستطيع القراءة بين السطور، وأهم من ذلك كله أن يكون مُتجرداً وشجاعاً لا يُجامل الصديق، ولا يُبخس أو يُهمِل أو يتشفى في أعمال من لا تربطه به صداقة، أو لا يتفق مع مبادئه، أو لا يتماشى مع مشاربه. ثم إن أعداد النقاد المؤهلين لا تتناسب والانفجار الهائل للأعمال الروائية. أضف لذلك أن النقد الأدبي أصبح في الآونة الأخيرة عِلماً قائماً بذاته، له أصوله وقواعده، وتدخل في مكوناته علوم اللغة وعِلما النفس والاجتماع، والمُثاقفة والتناص، إضافة للثقافة العامة العريضة، ولم يعد عملاً غوغائياً انطباعياً عشوائياً، وهو الأمر الذي ظلت تتجاهله الجامعات والمعاهد في إعداد نقاد مُقتدرين يلمون بالجديد في عالم النقد الأدبي. كل تلك الصفات التي ذكرنا تكاد تكون شبه معدومة في جل نُقاد اليوم بالسودان. إذ أنهم لا

يقرأون، وإنما يستقون المعلومات من بعضهم بعضاً عند التقائهم في مناسبة اجتماعية، أو في حفل استقبال، دون الاطلاع على العمل الذي يودون إلقاء الضوء عليه. الدليل على ذلك أنك لو اطلعت على تعليقاتهم على عمل أدبي بعينه لوجدتها متطابقة، وكأنهم ينقلون من بعضهم نقلاً مسطرياً. زد على ذلك انحصارهم في أعمال بذاتها قُتِلت بحثاً، وكأنه لا توجد في الساحة أعمال سواها. إن النقد لهو النبراس الذي يُضيء عتمة العمل الأدبي. فهو الذي يوجِّه الكاتب ويدله على ما يكون قد قصر فيه، أو لم يراعه من أسس وقواعد العمل. ويُفيد القارئ بتوضيح الجوانب الجمالية والجوانب السالبة في العمل. وباختصار، فإن الناقد لهو الوسيط بين الكاتب وقرائه، كما أن دوره لجد محوري في ذيوع العمل الأدبي وانتشاره. أما الحديث عن تناول الأعمال الروائية السودانية، فإن النقد، سواء أن كان مدحاً أم قدحاً، الذي يجده الروائي من قراء عاديين قد يلتقيهم صدفة، ليفوق كثيراً في جودته عما يخطه بعض النقاد. إذ يتميز رأي القارئ العادي بالعفوية، ويتسم بالصدق. أما عن تناول الأعمال الروائية في وسائل الإعلام من صحف ومذياع وتلفاز فحدث ولا حرج. تجد وسائل الإعلام هذه تتناول أعمال غابرييل غارثيا ماركيز، (Gabrial Garcia Marquez)، وفيودور دوستويفسكي (Fyodor Dstoevsky)، والكسندر بوشكين (Alexander Pushkin)، وغيرهم من الروائيين العالميين بحديث جله مبتور يهدف لاستعراض العضلات الثقافية للناقد، أكثر من الرغبة في تنوير القارئ والمستمع أو المُشاهِد. لذا يظل النقد، كما تجاهل وسائل الإعلام لمسيرة الإبداع السودانية، يظلان، في رأي الكثيرين، هما الحلقتان الأكثر ضعفاً في التوثيق للأدب السوداني عموماً، وللرواية على وجه الخصوص، والوقوف في وجه ذيوعهما خارجياً. ذلك على الأقل ما يؤكده ميرغني عز الدين بقوله: "للأسف العلاقة بين الإعلام المرئي والمطبوع

والمسموع وبين الثقافة والإبداع في السودان ... تأتي في ذيل اهتماماته. فالصحف السودانية لا تهتم بالصفحات أو الملاحق الثقافية ولا بكتابات المُبدعين".[8]

ولأن التعميم يُجافي الروح العِلمية، ويتسم في الغالب الأعم بالنظرة الشمولية، فلابدَّ من ذكر بعض الجهود الفردية والجماعية التي عملت وما تزال على الدراسة الجادة للرواية. نذكر من ذلك مبادرة مجلة القصة، والمبادرات الإيجابية التي يجتهد فيها القائمون على نادي الرواية. بيد أن ما يُقلِّل من أهمية مثل هذه الأندية، اعتمادها على الحوارات الشفاهِية بين المهتمين في هذا المجال. وهي بعد حوارات لا تُوثَّق، وحتى إن تم ذلك فيتم على صفحات الصُحف السيارة، ما يُقلِّل من فائدتها، بسبب عدم وصولها لأيدي الكثير من القراء من ناحية، ثم لأن الصحيفة ذاتها قصيرة العُمر من ناحية أخرى.

الخاتمة

تتبع هذا المقال التاريخ الذي تضاربت حوله الآراء حول نشأة الرواية السودانية، وتطرق للحِقب التي ازدهر فيها العمل الروائي وتلك التي أصابه فيها الضمور، مع تبيان العِلة في كلتا الحالتين. ولأن الروائيين ينتمون لعدة شرائح اجتماعية، فقد أفرز المقال حيِّزاً للرواية النسوية وآخر لرواية المهجر والعمل على رصد السمات المميِّزة لكل منهما. وكذلك تعرَّض للعوائق التي تواجه روائي اليوم من حيث إمكانات النشر والتوزيع وغياب الناقد المؤهل. وتناول أيضاً الطابع المحلي للرواية السودانية والأسباب التي تحول دون ذيوعها في العالم

(8) ميرغني عز الدين ـ الشرق الأوسط أون لاين، editor@middle-eastonline.com، تاريخ الاطلاع: 2019/9/30.

الخارجي. وسعى في الختام إلى التنبؤ بمستقبل الرواية التقليدية عموماً، ومن بينها الرواية السودانية بطبيعة الحال، آخِذاً في الاعتبار الانفجار غير المسبوق في مجال وسائل التواصل الاجتماعي، سيما وأن البعض كان قد أصدر بالفعل شهادة وفاة سريرية للرواية التقليدية، ويرى أن الرواية الوحيدة التي قد تستطيع الصمود مستقبلاً أمام تمدُّد الفضاء الإلكتروني لهي الرواية الذاتية التي يشحذ فيها المؤلف ذاكرته مسترجعاً ذكريات وحوادث شخصية يختزنها عقله الباطن. ومن العوامل الجوهرية التي قد تؤدي كذلك لتقهقر الرواية التقليدية السودانية، أن كُتَّاب المقال والمعلقين في وسائل التواصل الاجتماعي بصورة عامة، سيما أولئك الذين يتطرقون للشأن العام والقضايا المجتمعية، أصبحوا اليوم خصماً على المادة التي كانت حتى وقت قريب حِكراً على الروائي.